جامعة عبد الرحمن مبرة بجاية
محضرات مقياس أدب عصر الضعف
ماستر1، مج 1
الأستاذة نسارك

المحاضرة الأولى: الظروف السياسية والاجتماعية لعصر الضعف

يمتد عصر الضعف والانحطاط على مدى خمسة قرون من سنة 656هـ الموافق لـ 1258م تاريخ سقوط بغداد حتى سنة 1213 هـ الموافق 1798م تاريخ حملة نابليون على مصر ذلك ما توافق عليه النقاد ودارسو الأدب، فما هي أسباب سقوط بغداد؟

أسباب سقوط بغداد كثيرة تراكمت عبر مئات السنين، من أهمها:

1- سوء العلاقة بين الخلافة والرعية؛ فقد كانت الخلافة تعيش لاهية في ترف وبذخ وتبذير، بعيدا عن الدين وحدود الشريعة وأحكامها، في الوقت الذي كانت فيه الرعية تعاني مشقة الفقر والحاجة، وترزح تحت عبْء الضرائب والإتاوات، وعناء الاستبداد؛ والتسلط والظلم، ممّا أدى إلى كراهية العامة لأولي أمورها، وانعدام الولاء للسلطة المركزية في بغداد، وامتداداتها في الأقاليم.

2- فساد وضعف الخليفة المتعصم بالله ومحيطه، وافتقاره للهيبة، مما نتج عنه استخفاف وزيره مؤيد الدين العلقمي به ، زيادة على الخلاف الذي كان بين وزير الخليفة وقائد الجيش الدويدار الصغير. واختلاف قائد الجيش مع أتباعه الذين شقوا عليه عصا الطاعة فأصبح كل جندي قائد نفسه.

3- عدم الاستعداد المطلوب لمواجهة التتار بالإنفاق على إعداد الجيش وتدريبه وتسليحه، بل أنقص الخليفة من مرتبات الجنود وسرح الكثير منهم لتوفير مزيد من المال وإنفاقه على الملذات ، ومجالس اللهو والمجون.

4- ضعف السلطة المركزية في بغداد أدى إلى انفصال الأقاليم والإمارات عنها وزاد في شدة الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة. وخاصة في العراق.

5 - تركيبة الجيش الذي كان في معظمه عبارة عن مرتزقة (مماليك) ، والذين انصرفوا عن القتال ، بل انظم الكثير منهم إلى الجيش المغولي ، وأطلعوه على أسرار الجيش العباسي وأحواله المادية والمعنوية السيئة.

وينقسم عصر الضعف والانحطاط إلى فترتين:

<u>1- الفترة الأولى</u> : وعرفت لدى مؤرخي الأدب بعدة أسماء منها، عصر المماليك، وعصر الدويلات، وعصر الحروب الصليبية، والعصر المغولي، ويمتد عبر حقبة زمنية تبدأ من عام 656هـ الموافق 1258م إلى سنة 923هـ الموافق1517م تاريخ استيلاء سليم الفاتح على مصر؛ وأكثر المصطلحات ملائمة هو مصطلح **"عصر الضعف"**.أما الفترة الثانية فهو العصر العثماني الذي يليه مباشرة وينتهي بحملة نابوليون بونابارت على مصر.

<u>أولا:عصر الضعف (250 من عام 656هـ الموافق 1258م إلى سنة 923هـ الموافق1517م).</u>

1-1الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عصر الضعف:

وضع المغول أيديهم على دار الخلافة العباسية في بغداد 1258م/ 656هـ، وألحقوا الدمار والخراب بكل ما وقعت عليه أيديهم فيها، فعبثوا بالدماء، والأعراض والأموال، وخربوا التراث الفكري والعلمي، وفي مقدمتها مكتبة "دار الحكمة " وباقي المكتبات، وهدّموا ما صادفهم من عمران ومعالم حضارية، ونشروا الرّعب والفزع والهلع في كل مكان، فهام كل بغدادي على وجهه يتلو قوله تعالى "يَا

لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا"؛ ومن بغداد توجه التتار صوب الشّام فاكتسحوا حلب؛ ودمشق ومدن فلسطين التي أصابها منهم ما أصاب بغداد.

ومن حسن الحظ أنه وقبيل أن يجتاح المغول بغداد كان المماليك قد أقاموا دولة لهم في مصر، وبسطوا سيطرتهم على الشام والحجاز، وهم الذين تصدوا للمغول في طريقهم إلى مصر سنة 658هـ الموافق لـ 1260 ، وبفضل بسالة جيوشهم وبقيادة السلطان المملوكي سيف الدين قطز؛ وقائد جيشه الظاهر بيبرس، تلقى التتار هزيمة ساحقة نكراء في معركة "عين جالوت " ، جعلتهم يتراجعون مدحورين نحو آسيا الوسطى ولكن دون أن ينهي ذلك تهديدهم الذي استمر حتى وفاة تيمور لنك سنة 1404م .

2-1 هجر الكثير من العلماء والأدباء وطلاب العلم بغداد، وحلب، ودمشق وباقي المدن العباسية المدمرة نحو الأقاليم العربية والإسلامية التي استعصت على الغزاة ؛ وسَلِمَتْ مِنْ بطشِ المغول والصليبين وفي مقدمتها ؛ الشام ؛ والحجاز؛ ومصر والتي وجد بها الفارون والمهاجرون ملاجئ تأويهم تحت حكم المماليك بالرغم مما كان بين هؤلاء من فتن ومنازعات تضر بالاستقرار وبالأمن والسلم الاجتماعي.

3-1 أما في المغرب العربي فكانت بداية الهجمات الصليبية متزامنة مع سقوط مدينة طليطلة سنة 478هـ الموافق لـ 1086م ، وتعززت أكثر حين دعا البابا أوربان المسيحيين إلى مساندة الأسبان في حروبهم ضد المسلمين سنة 481ه الموافق لـ1089م ؛ وحرم على الأسبان مشاركة غيرهم من الأوربيين في الحملات الصليبية على المشرق بقيادة الكنيسة .

وفي المقابل كلفهم بمهمة دحر المسلمين وطردهم من الأندلس؛ وكذلك كان الحال؛ فبدت "الصلة وثيقة بين الحروب الصليبية العامة التي كانت تهدف إلى استعمار بيت المقدس؛ والمدن المقدسة في فلسطين ، وبين الحروب الصليبية بالمغرب التي كانت تهدف إلى استرجاع اسبانيا إلى حظيرة النصرانية من جهة؛ وإلى محاربة الإسلام؛ ومحاولة القضاء عليه من جهة أخرى. وتمكن الصليبيون في الغرب من إحراز النصر الذي عجزوا عن تحقيقه في المشرق؛ وخاصة بعد سقوط دولة الموحدين سنة668هـ الموافق 1269م وهو الحدث الذي أغرى الصليبين وشجعهم أكثر وحفزهم على حشد كل ما يمكنهم من قوى وموارد لطرد العرب والمسلمين من الأندلس وبصفة نهائية وقد تحقق لهم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، لسنة 897 هـ الموافق 2 من يناير سنة 1492 م ؛ولم تأت سنة 1520 حتى كان كل الساحل الغربي للمغرب الأقصى خاضعا لحكم البرتغاليين.

4-1 استنزف الاجتياح المغولي المتوحش ، والتصدي للحملات الصليبية المتتالية والطويلة في الشرق والغرب قدرات الناس؛ وأنهك مواردهم، وأضيف ذلك كله إلى أعباء الخلافات والمنازعات والحروب؛ والاضطرابات المحلية التي كانت سائدة ومستمرة بين سلاطين وأمراء الأقاليم المتنافرة المتناحرة حتى بين المماليك أنفسهم داخل مصر ذاتها، فلم تتحسن أوضاع الناس بعد انكفاء المغول يجرون أذيال الهزيمة ؛ واندحار الصليبيين على يد صلاح الدين الأيوبي، بل راح تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية يزداد سوءا، يوما بعد يوم؛ وعاما بعد عام، فتعاظمت الكوارث الطبيعة من فيضانات وسيول غامرة جارفة، تتلوها فترات قحط وجفاف مدمّرة، وانتشرت الأوبئة وعلى رأسها الطاعون، وقلّت المكاسب وفحش الغلاء؛ فعم الفقر والفاقة، وتوسّعت الفجوة بين الطبقات، وطالت المظالم جماهير العامة، و كثرت الخلافات والحركات الهدامة وما يتبع ذلك كله من انتشار الأوهام والبدع ومن نشوب المنازعات .

أما في المغرب فيبدأ عصر الضعف بسقوط دولة الموحدين سنة 1269م والتي خلفتها دويلات

ضعيفة وهي الدولة الحفصية؛ والزيانية؛ والمرينية. بدأت وجودها متدافعة متصارعة متقاتلة فيما بينها وأنهته كذلك. ومع مطلع القرن السادس عشر الميلادي استغل الأسبان انهيار حكم الزيانيين في تلمسان؛ ووهن الدولة الحفصية بتونس فاستولوا بقيادة فرديناد على معظم الثغور والمدن الساحلية المهمة في المغرب والجزائر وتونس بين سنوات 910هـ/1505م و917هـ/1511م واستمرت سيطرتهم عليها حتى سنة 1516م حيث استعاد خير الدين وبابا عروج الجزائر العاصمة من الأسبان وجعلاها قاعدة لنشاطهما وجهادهما، ومدافعة عن التدخل الأسباني والأوروبي في غرب البحر المتوسط.

1 -2الفترة الثانية : فترة حكم الأتراك العثمانيين مشرقا ومغربا، وتبدأ من سنة 923هـ الموافق1517م ،تاريخ حملة سليم الفاتح على الشام إلى سنة 1212هـ الموافق لـ 1798م تاريخ حملة نابليون بونابرت على مصر وهو ما يعرف بـ "عصر الانحطاط" . وسنعرض فيما يلي لكل فتة على حدة.

2-2الحياة الفكرية والثقافية والأدبية في عصر الضعف(عصر المماليك)

في هذا العصر تميزت الحياة الفكرية والثقافية والأدبية بمجموعة من الخصائص والمميزات يمكن إجمالها فيما يلي:

أ- بشكل عام اتصفت الفترة الأولى من عصر الضعف باحترام المماليك للغة العربية، التي حفظوا لها مكانتها؛ وصانوا هيبتها من خلال اتخاذها" لغة رسمية في دواوين الدولة...وعلى رأسها ديوان الإنشاء الذي كان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والأدب والكتابة. ونفس الفضل يعترف لهم به إزاء العلماء؛ ورجال الدين الوافدين من بغداد، والبصرة؛ وحلب وغيرها "وتعظيمهم ورعايتهم، ومشاورتهم في أمورهم العليا، واختيار أَصْلَحَهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما. وقد كان ذلك سببا في رواج العربية، وفي رواج الفصحى داخل الدواوين، وبخاصة في كتابة المراسلات والوثائق العليا، وسببا في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء، وهذا أعطى أفضلية للنثر والناثرين على الشعر والشعراء. وخاصة في الكتابة الديوانية، والتدوين.

وفي ما يتعلق بمجال العلم والأدب والثقافة في المغرب العربي؛ فإن الكتب تذكر أن الحفصيين بتونس، والزيانيين بتلمسان والمرينيين بالمغرب أسّسوا بعض المدارس، والّتي كان ينفق عليها في الغالب من مداخيل أملاك وقفية تابعة لها تبرع بها أهل البرّ والإحسان، ولكن لم تكن من حيث الكثرة والمستوى على قدر حاجة المجتمع، وأن الذي سدّ العجز وغطّى الحاجة هي الزوايا التي بدأت تتكاثر مع بداية القرن الثامن الهجري، يؤمّها طُلّاب العلم من كل حدب وصوب، ومن مختلف طبقات وأعراق المجتمع؛ وازداد نموّها وانتشارها مع مرور الزمن وتمحور التعليم فيها حول العلوم الدينية واللغوية، بالإضافة إلى الزهد والتصوّف.

وقد قَلَّتْ في هذا العصر دواعي الشّعر عما كانت عليه في العصور السّابقة على الرغم مما سبق ذكره؛ ذلك لأن معظم ما قام به سلاطين المماليك ووزراؤهم لم يكن حبا في اللغة العربية وآدابها، وإنّما كان نزولا عند مقتضيات السّياسة؛ وفي مقدّمتها استرضاء الشعب العربي المسلم الذي يحكمونه، واستمالة رجال الدين للاستعانة بسطوتهم الواسعة التي كانوا يتمتعون بها لدى العامة في تثبيت أركان ملكهم، خصوصا وأن عامة الناس ومعظم السلاطين على وعي تام بحقيقة كونهم زنوج ؛مماليك ، ورقيق ؛ جلبوا إلى مصر من إفريقيا عن طريق التجارة ؛ ونشّئوا تنشئة عسكرية فغلب على طباعهم الميل إلى الخشونة والصلف؛ لا يتقنون العربية ، ويصعب عليهم إدراك معاني الشعر وعناصر الجمال فيه وبالتالي تذوقه فهم أعاجم عن العربية فليسوا إذن على استعداد فطري للإنصات إلى شعرائها والعطف عليهم.

إن كون المماليك أعاجم لم يمنعهم من السعي إلى إضفاء الصبغة العربية الإسلامية على مظاهر ملكهم ، من خلال سلوك ما ألف ملوك الدولة العباسية سلوكه كتقريب العلماء والشعراء وجلب أكبر عدد منهم و أشهرهم إلى بلاط السلطنة أو الإمارة لتزيين المجالس السلطانية والأميرية، والتفاخر بما يلقونه من خطب وينشدونه من مدائح ،و كل يطمع في تحقيق بغيته؛ فالسلاطين والأمراء من المماليك يرغبون في توظيف الأدباء والشعراء كوسائل إعلام دعائية تنشئ وتنشر وتذيع قصائد المدح والتمجيد والإشادة بمآثرهم الحاضرة ، ومعاركهم الجهادية في حماية الدين والأوطان، بشجاعة وحنكة أفتقدها الناس لدى ملوكهم وقاداتهم العرب و تغطي على وضاعة أصولهم ، وقلة شأنهم في ماضيهم، وترفع صيتهم ، وتسمو بمقاماتهم على مقامات نظرائهم ؛ وخصومهم ؛ ومنافسيهم ، وتقوي إعجاب الرعية بهم و تمتن ولاءها لهم .ورجال العلم والأدب يسعون من جهتهم إلى تحسين أوضاعهم المادية والمعيشية ،وتعزيز مراكزهم الاجتماعية بما يحصلونه وينالونه من عطايا وهبات ومكافآت.

ب-ازدهار حركة الجمع والتأليف:

أحس العلماء والأدباء في مصر، والشام ؛ والحجاز، والمغرب العربي بفداحة الخراب الفظيع الذي ألحقه الغزو المغولي التتاري ، والنهب الصليبي لذخائر العلوم والآداب ونفائسها ،ولمصادر الثقافة العربية الإسلامية ؛ وما نجم عن ذلك من فراغ علمي رهيب؛ وأضرار لا تجبر؛ كما أحسّوا بثقل المسؤولية الأخلاقية، والعلمية والدينية والتاريخية الملقاة على عاتقهم في جمع ما بقي عالقا بالصدور؛ من آثار استعصت على عوامل الفناء، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه وحفظه من الضياع، خاصة بعد أن وفّر لهم المماليك الظروف المساعدة من استقرار وأمن، فبادروا إلى ذلك وأقبلوا عليه بالتدريس والخطابة، وبالكتابة والتدوين : جمعا ، وتصنيفا ، وشرحا وتعليقا ،وغيرها من ألوان النشاط، فانعكس ذلك كله في كثرة التآليف التي تميز بها هذا العصر، الذي عرف بعصر الموسوعات.

ومن أصحاب الموسوعات المشهورة التي ظهرت في هذه الحقبة ابن منظور(ت 71هـ /1311م) صاحب كتاب معجم "لسان العرب" والنويري (ت 733هـ/ 1332م) صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب ؛ وزكريا محمد القزويني(ت 682هـ/1283م) صاحب كتاب "عجائب المخلوقات" وغيرهم كثير.

ج-خصائص الأدب في هذا العصر:

-ضعف الشعر: تميزت المرحلة الأولي من عصر الضعف بكثرة الشعراء لكثرة دواعي الشعر وبواعثه ، ولكن مع ضعف مستواه ، بالقياس إلى مستوى الأدب في العصور السابقة ، سواء أكان هذا الضعف في المضامين أوفي النواحي الفنية الجمالية ، والمعاني ، والصور، وفي القضايا المطروحة ومناهج المعالجة وأغراض الشعر المألوفة الموروثة من فخر، ومدح، وغزل ،وهجاء ووصف، وشكوى وما إليها وجريا على نفس السنن والقواعد المتعارف عليها من قبل دون تجديد.، فغلبة التقليد والاجترار لمواضيع مطروقة موروثة بادية هذا قبل أن ينحط مستواه إلى الحضيض بعد أن كسد سوقه ويئس المتكسبون منه والمرتزقون به ،فانصرفوا إلى طلب الرزق من طرق الحرف والمهن الأخرى وانشغلوا عنه بهموم الحياة، ومطالبها المتزايدة ،ولم يعد لهم من الوقت ما يكفيهم لنظمه أو صناعته و تنقيحه .

في الحقبة الثانية (1617م-1798م)حين أصبح الفخر يدور حول ما اقتناه الشاعر أو الممدوح من بيوت أو خدم وحشم أو دواب، وصار الهجاء ينصب على البعوض والفْئران والصراصير وقس على هذا في مختلف الفنون.

ويمكن تصنيف شعر هذه المرحلة ضمن تيارين بارزين كما درج على ذلك دارسو الأدب ومؤرخوه ،وهما : تيار الزهد، ويقابله تيار اللهو والمجون ؛مع ضرورة التنبيه وجود ثروة شعرية تكفي لتشكل تيارا ثالثا فيه من هذا ومن ذاك ،يمكن ان نسميه تيار الهزل والسخرية والضحك، وتنحصر أسباب ظهور التيارات الثلاثة في سوء الوضع العام الذي طبع المرحلة وكان من أبرزها الصراع والتنافس على السلطة فكثرت الدسائس والانقلابات السياسية وما صحب ذلك من اضطرابات أمنية أفقدت المجتمع بأسره توازنه ،ودفعت به في دوامة من القلق الشامل، تدهور معه الوضع الاقتصادي ،فانتشر الفقر والفاقة والأوبئة وما افرزته من آفات؛ وأدت إليه من كساد في سوق الفكر والأدب و الشعر بث اليأس وخيبة في النفوس، وثبط الهمم.

الفترة الثانية: عصر الانحطاط.

وبعد أن تمكن الأتراك العثمانيون من صد آخر حملة صليبية تقودها أروبا ضد المسلمين بين سنتي 1443 م إلى 1444 م تفرغوا لتقوية جيوشهم وتدريبها وتسليحها ثم اتجهوا بها جنوبا وغربا نحو الأقاليم والإمارات والدويلات العربية والإسلامية وفي سنة " 923هـ الموافق1517م " وبعد سيطرة الأتراك على الشام ومصر ومعظم الشريط الساحلي للمغرب العربي وباقي الأقاليم الأخرى التي أخضعوها لسلطانهم شرقا وغربا وشرعوا في ابتزاز أموال الناس :الفلاحين والتجار ؛ وأصحاب الحرف على وجه خاص، والرعية بشكل عام وبالغوا في فرض الضرائب والإتاوات الجائرة، وزرعوا في النفوس الخوف والرعب، فانتشر الإفلاس والكساد، وخيم الفقر والفساد، وعم القلق والجهل والاضطرابات والفتن، وتفككت روابط المجتمع، وانتهجوا سياسة التتريك العام فبدأ انحطاط الأدب حين جفت دواعيه ومنابعه وأدواته، فتسارع تهاويه نحو الحضيض شكلا ومضمونا ، ، وتسلط الخمول على العقول فتصحرت الحياة الفكرية والعلمية والأدبية ، وتلاشت المواهب ،وجفت القرائح، ولم يبق من مظاهر الفكر والأدب إلا المتكلّف والمعقّد.

المحاضرة الثانية: الأغراض الشعرية التقليدية في عصر الضعف والانحطاط

كثر عدد الشّعراء في هذا العصر كثرة تلفت النظر، ولكن هذه الكثرة العددية لم تكن تواكبها إجادة شعرية متميّزة. فكان الشّعراء المجيدون قلة، ولم يتوقف موكب الشعر أو ينقطع في العصور الأدبية كافة على تباين الظروف، واختلاف الحكام، بل ظل يحتفظ بمكانته التقليدية من الرعاية والعناية، وظل الناس يكرمون الشاعر ويقدرونه، مع أن هذه الظاهرة تبدو جلية في عصر الأيوبيين والمماليك، وتغيب في العصر العثماني، ولاسيما في بلاطات الحاكمين. ولم تختلف موضوعات الشعر في هذا العصر عن موضوعات العصور السابقة، من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف وشكوى وما إلى ذلك، كما وجدت في هذا العصر موضوعات جديدة .

1-الموضوعات التقليدية: أخذ شعراء هذه الحقبة معاني القدماء وصاغوها صياغة جديدة، وسبكوها في القوالب التقليدية المتداولة. فإذا وصف الشاعر القديم ممدوحه بأنه بحر أو غيث أو أسد أو شمس أو قمر أو متوج بتيجان الملوك أو تقي أو سليل أكارم وأمجاد أو حام للدّين وأهله، أو مذل للشرك وقومه.. جاء الشاعر اللاحق فاتبع سنن الشاعر السّابق ، كأن يضع نصب عينيه مقولة: ما ترك الأول للآخر شيئاً.

وكان أمام الشّاعر المتأخّر، اللاحق، رصيد من المعاني والصور خلّفها القدماء، في المديح والفخر والغزل والهجاء.. وتقتصر مهمة هذا الشاعر المتأخّر أن يتطفّل على هذا الرّصيد فيأخذ منه ما يحتاج،

ويزعم بعد ذلك أنّه جاء بقصيدة كان السّابق (الشاعر الأصيل) يتمثل الصورة الكلية لموضوعه، ويحيطها بدفء عواطفه وحرارة مشاعره، فتبدو حية نابضة متلألئة. أما اللاحق فهو أشبه ما يكون بالجزار يقطع من هذه الكتلة أو تلك، ويضم بعضها إلى بعض بعيداً عن خلجات قلبه وحرارة أنفاسه. مثل السابق قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومديح المعتصم، أو قصيدة أبي الطيب المتنبي في وصف معركة الحدث ومديح سيف الدولة، ومثل اللاحق قصيدة أبي منير الطرابلسي (ت548هـ) في مدح نور الدين وانتصاره على الصليبيين، وقصيدة ابن الساعاتي (ت604هـ) في فتح صلاح الدين بيت المقدس. وقد كان التفاوت كبيراً في جودة قصائد السابقين وقصائد اللاحقين وابتكار المعاني ومتانة الأسلوب .

وقد انحطّ شعر المديح في العصر العثماني، ولم يعد الشاعر يجد من يتوجه إليه بقصائده .ولم يكن فن المديح في هذه العصور إلا كالفنون الأخرى من الشّعر إتّباعا وتقليداً ووهناً، وإذا كان ثمة من فرّق فهو في بعض مقدمات القصائد، إذ انحرفت إلى الغزل بالمذكر، أو قد يكون فخراً بمقتنيات كالدور والملابس والخدم والحشم، كفخريات منجك (ت1080هـ) أو قد يكون هجاء للبعوض والفئران والصراصير، كقصيدة جعفر البيتي (ت1052هـ) وقد أكثر هؤلاء الشعراء من وصف الأفيون وأثره في العقل والجسم.

2-أغراض الشعر العربي في عصر الضعف:

لقد ولع الشعراء في آخر العهد التركي بالتاريخ الشعري، وأنهم اتخذوا ذلك رياضة فنية يوجبونها على أنفسهم، كما انتشر التقريظ (مدح الأحياء والشعر التعليمي، وجفاف الصورة والخيال الفني) وهذه نماذج تبيّن ذلك:

قال سيد علي الدرويش في قصيدة إلى محمد علي باشا، يؤرخ لمجيء الجراد إلى مصر في عام شهد فيه موت كثير من الأبقار:

ياصاحِ ما هذا الخبر قال: الجرادُ هُنا ظــهَرْ
قلتُ: الجراد! فقال: إي تَدرِي الجراد إذَا ابتَدَرْ؟
قلتُ: استعذ بالله! قال: وهل من المقضي مَفَرْ؟
ما كان قَطُّ بِـخَاطِرِ في خاطِرِي هذا الخبَــرْ
جاءَ الجـرادُ كأنَّه يتلُو على البقرِ السُّوَرْ
أو أنَّ أرواَحَ البَها ئِمِ أُلبِسَت تْلكَ الصُّــوَر

إلى أن قال مؤرخًا تاريخ وصول الجراد وموت البقر:

أرَّخْتُهُ وَصَلَ الجرَادُ لمصرَ فِي عَامِ البَقَر

وإذا كانت الأغراض الراقية من الشعر كالحماسة والفخر والهجاء قد تراجعت وضعفت في هذا العصر، فقد برزت إلى الواجهة أغراض شعرية بدائية كالمعارضات، والاعتذار، والتهنئة والتقريظ، والعتاب، ويمكن أن نشير إلى بعضها بالنماذج التالية:

-المعارضات: وهي أن ينظم الشاعر معارضًا شاعرًا آخر ويقلده في الغرض والوزن والمعجم والإيقاع. ومن نماذجها يمكن أن نمثل بهذه القصة: حاول أحد الشعراء احتقار مدينة «بورين» الفلسطينية بحضرة الحسن التبريزي فمنعه هذا الأخير وردَّ عليه مُشيدًا بقرية «بورين»:

بورينُ طولي على الآفاق وافْتخري على الممالك منْ شأمٍ ومن يَمنِ
وكيفَ لا تَفْخرينَ الأرض قاطبةً بالفاضل المقْتدى من فعِلِه الحَسَنِ

ولما علم «الحسن البوريني» (ت1615م) بالحادثة ردَّ معروف أستاذه وأشاد ببلدة «تبـريز»:

تبريزُ طولي على البلدان وابْتهجي بعـالمٍ فـاقَ كُلَّ الناسِ تِبْريـــــــزا
فخْرُ الورى أسَدُ الدينِ الذي سَعِدَتْ أيامُـهُ فَحَسِبْنا الكُـلَّ نيـــــــــروزا

-أما **الاعتذار**: فقد روي أنَّ الشيخ أحمد بن أحمد الطيبـي وعد الشاعر حسن البوريـني بشيء ولم ينجزه، فقال معتذرًا:

يا سيِّدي لَسْتُ والرَّحْمنِ أنساكا فإنَّ في خاطري الوَلْهانِ مَثْواكا
وَلَمْ أكنْ تاركاً ما قدْ وعدت به فكيفَ وَهو سبيلٌ لي للقياكا
فاسمحْ فَديْتُكَ مِنْ خِلٍّ ألوذُ به ولا تكنْ حاقداً حاشاكَ حاشاكَ

-وأمَّا **شعر التهنئة** فقد كان في مجمله سخيفًا متكلَّفا ومرتبطًا بأحداث عادية، ويمكن أن نورد مثالا له ما قاله (محمد بن قاسم الحلبـيّ) في تهنئة صديق بـختان نجلٍ له:

أعلاَّمة الوقتِ مَولى الموالي وقُـرّة عينِ الـعُلا والكَمـــــــالِ
فبُشرى لكم بالختانِ الذي بِه لبِس الـمجدُ ثوبَ الجَمالِ

-أمَّا شعر **الألغاز والمعميات**، فقد أبدع فيه كثير من الشعراء باعتباره غرضًا ترفيهيا وتثقيفيا في الآن نفسه، وخلاصته أن يكون الشعر في قالب لغز أو ما يعرف اليوم بـ «الفزُّورة»، ومثاله قول حسين بن أحمد الزيات ملغزا في نبات «الشعيـر»:

ما اسْمُ شيءٍ مِنَ النَّباتِ إذا مازالَ حَرْفٌ مِـنْهُ غدا حَيوانا
وبتَصحيفِ بَعْضِهِ فـهو نا وتُـرَوّي مِنْ بَعْضِهِ الظَّـمْآنا

ولم يعدم شعراء عصر الضعف الأدبي أن يكون من بينهم من برق شعرُه وتخلَّص في بعضه من قيود الصناعة اللفظية، وسطحية اللغة وسوقيَّتها، ومن بين هؤلاء الشعراء يطالعنا من عصر المماليك اسم ابن الوردي (ت 749هـ)، وهو شاعرٌ أديب مؤرِّخ وفقيه، ومن أشهر شعره لاميتُه في النصح وتضمُّ 77 بيتًا، ومطلعها:

اعتزلْ ذكرَ الأغاني والغزلْ وقلِ الفصلَ وجانبْ مَنْ هــزلْ
ودعِ الذكرى لأيامِ الصِّبا فـلأيّامِ الصِّبا نـجمٌ أفـــــــــــلْ

وخلاصة القول أن الأغراض الشعرية في عصر الضعف قد اتّسمت بالتكرار والجفاف، فقد تراجعت أغراض شعرية تقليدية ومن بينها شعر المدح الذي كان عمود القصيدة العربية التقليدية، إضافة إلى تقليد المعاني والابتعاد عن التجديد، وهو ما جعل شعلة الشعر العربي تخفو وتتّسم بالنمطية والتقليد، وفي المقابل فقد ظهرت وتطوّرت أغراض شعرية أخرى كالشعر الصوفي الذي كان سمة بارزة في عصر الضعف.

المحاضرة الثالثة: الموضوعات المستحدثة في العصر المملوكي و العثماني

ظهرت مجموعة من الأغراض الشعرية ف عصر الضعف، أو أنها كانت موجودة في الشعر العربي ولكنها عاودت الظهور بخصائص جديدة، ومن ذلك شعر الغزل، فقد انتشر الغزل في عصر الضعف والانحطاط وشاع بين الشعراء، وكذلك ظهر نوع شعري جديد وهو شعر الحشيشة الذي ارتبط كثيرا بالشعر الصوفي.

1-الغزل الحسي في عصر الضعف:

أصيب الغزل في العصر المملوكي و العثماني ما أصيب به الشعر عموماً من جمود وانحدار، وقلد شعراء هذا العصر سابقيهم في الغزل الاستهلاكي المبتذل، لاجئين إلى الصور الصحراوية التي عفاها الزمن، ثم تمادوا في سرد الفحش والبذاءة، وأكثروا من التغزل بالمذكر دون حياء أو خجل، وجاءت أفكارهم عموماً سطحية جوفاء، و خيالهم ذاوياً لا رونق فيه، وعاطفتهم كاذبة مصطنعة دون تحليل.

و مع ذلك لا نعدم بعض الشعراء المجيدين كالبوصري، وابن نباته، وصفي الدين الحلي. لم يكن التغزل بالغلمان من ابتداع شعراء العصر المملوكي، فقد نسبه المؤرخون لأبي نواس ومن جاراه من شعراء الخمر والمجون في العصر العباسي، الذين استجابوا للانفتاح الحضاري والثقافي الذي شهده مجتمعهم والذين عبروا انبهارهم بالمرأة الأجنبية التي تشبه الغلمان في ملبسها وقصة شعرها، وتغزّلوا بها كما أولعوا بالغلمان وتغزلوا بهم. أما شعراء العصر المملوكي فقد تغزّل العديد منهم بالغلمان مجاراة للشّعراء العباسيين، وتقليداً لهم بهدف إظهار مقدرتهم الشعرية وتمكنهم من كل فنون الشعر التقليدية يؤكد ذلك حرج بعض الشعراء من تغزلهم بالغلمان وتبريرهم هذا الغزل بمثل ابن الوردي قبل توبته من غزل الغلمان. وقد اجتهد شعراء هذا العصر في إظهار مقدرتهم على هذا اللون الشعري، وبرعوا في تجديد معانيه،

من ذلك قول ابن حيان الأندلسي ببعض الغلمان المشوهين وجعل قبحهم جمالا فقال في غلام أبرص:

وقالوا الذي قد صرت طوع جماله = ونفسك لاقت في هواه نزاعها
به وضح تأباه نفس أخي الحجا = وأفظع داء ما ينافي طباعـــها
فقلت لهم لا عيب فيه يشينه و = لا علية فيه تروم دفاعـــــــها
ولكنما شمس الضحى حين قابلت = محاسنه ألقت عليه شعاعها

ولقد برع ابن حيان في إخفاء فتور عاطفته تحت بريق معانيه المبتكرة، الأمر الذي لا يخفى ما يريده الشاعر من هذا الغزل، فهو يهدف إلى تطييب خاطر ذوي العاهات إضافة إلى إثبات مقدرته على الغزل مجاراة لأهل الزمان وإلا فكيف نبرر انصرافه عن الغلمان الأصحاء.

لقد حرص الشعراء الذين نظموا في هذا اللون على إثرائه، وعلى الإبداع فيه والانفلات من إسار التقليد، متخذين –غالبا من الغلمان غير العرب مادة لإثراء معاني غزلهم، من ذلكً الغزل بعيون الترك .

ولعلنا نتناول شاعرين خاضوا تجربة الغزل بالغلمان في عصر المماليك(صفي الدين الحلي، ابن الوردي)

صفي الدين الحلي:

وهو في غزله بالغلمان بارع متفنن، متعدّد الأغراض متنوّع الأساليب، ظريف التناول، كثير التساؤل، ويمكننا أن نقسم غزله في الغلمان إلى قسمين: الأول لا يجانب فيه الأخلاق والذوق، والثاني يجانب فيه الأخلاق والذوق.

فأما القسم الأول فيدور على وصف الغلمان ومخاطبتهم، ومناجاتهم والتغزل بهم تغزلاً تظهر فيه العاطفة أكثر من ظهورها في غزله النسائي .ونستطيع أن نجمل آراءه في هذا القسم بالملاحظات التالية:

أ- معظم غلمان صفي الدين الحلي، يحملون أسماء أنبياء كيوسف وسليمان وداود وموسى وإبراهيم، ويستغل شاعرنا هذه الأسماء في شعره استغلالاً حسناً، فيستفيد من معاني التسمية وما تحمله من دلائل كقوله في غلام اسمه يوسف:

يا سمي الذي به اتهم الذئـ = ـب وأفضى إليه ملك العزيز

لو تقدمت مع سميَّك لم يمـ = ـس فريداً في حسنه المنبوز

ب- لا يصف الشاعر غلمانه ويتغزل بهم في حالة الصحة فقط، وأجواء الانطلاق والسرور، بل يصفهم ويتغزل في حالة المرض.

ج- وغلمان صفي الدين الحلي، فنانون، فمنهم من يحسن الرقص، ومنهم من يجيد الضرب على العود، ومنهم من يتفنن في لعب الشطرنج، ومنهم من يتفنن في سقاية الخمر، وشاعرنا في هذا كله يتابعهم متغزلاً واصفاً.

ابن الـــــــوردي:

ابن الوردي هو لقب عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس أبو حفص زين الدين بن الوردي المعرّي الكندي ، شاعرٌ أديب مؤرخ ، ولد في معرّة النعمان بسورية ، وولي القضاء بمنبج ، تنسب إليه اللامية التي أولها:

اعتزِل ذِكر الأغاني والغزل = وقُلْ الفصلَ وجانب مَنْ هَزَلْ

وكان إماماً وفقيهاً، بارعاً في الفقه واللغة والنحو والأدب، معرّي الأصل ولد سنة 689 ونشأ بحلب وتفقّه بها ففاق الأقران، له عدة مقامات كالمقامة الصوفية والمقامة الأنطاكية ، والمنبجية والمشهدية...

ونلاحظ في شعره مرحلتين متباينتين في المعاني والأسلوب ،

أمّا **المرحلة الأولى** فهي مرحلة شعر الشباب ومطلع الرجولة، وفيها يتجه في موضوعاته إلى مباهج الدنيا ومسرّاتها ويكثر القول فيها في الغزل ووصف الخمر، والمجون، كما يتجه بالمديح لكثير من رجالات عصره ، أمّا **المرحلة الثانية** من شعره فيغلب عليها الشكوى والعلل والإعراض عن ملاقاة الحياة ومباهجها والزهد، والاعتذار عمّا بدر منه في شبابه، والحقيقة أنّ معظم شعر ابن الوردي إن لم نقل كله هو نتاج المرحلة الأولى من حياته ، يدلنا على هذا ما ساقه ابن الوردي في مقدمة ديوانه ، إذ قال" : ولعمري ما أنصفني من أساء بي الظن، أو قال عني كيف رضي مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن ، فالصحابة كانوا ينظمون وينثرون... وبالجملة فهذا وأشباهه من نظم الصبا ، ومما قلته في أول العمر تأدّباً لا تكسباً ، ثم إن العلم الشريف قطع بيني وبين هذا الفن العلاقة"

فابن الوردي فيما سبق يسوغ نظمه للشعر بأن الصحابة كانوا ينظمون وينثرون ، فالنظم والنثر لا يطعنان فيه كإمام وفقيه ، وهو يصرّح بأن أشعاره هي من نظم الصبا ، ثم إن طلبه للعلم وتعاطيه له قطع الصلة بينه وبين فن الشعر عموماً .

قلّد ابن الوردي شعراء عصره في كثير من الشعر امتحاناً لقريحته وإثباتاً لمقدرته الفنية والأدبية ، كالغزل بالمذكر، فقد صار الغزل بالمذكر عادة مستحبة يتقبلها الجمهور في تلك الحقبة بإعجاب كبير، ولهذا فقد نظم فيه ابن الوردي بغية ترويج أشعاره كما يقول، وليس تعبيراً عن مشاعر صادقة أو حقيقية يتضح هذا في قوله:

أستغفر الله من شعرٍ تقدم لي = في المردِ قصدي به ترويج أشعاري

هذا وقد قال في مقدمة ديوانه معللاً غزله بالمذكر : " قد يقف الناظر في مجموعي هذا على وصف عذار الحبيب وخدّه ، وشكوى عشقه وصده ، ونعت ردفه ، وذم الشيء وحمده ، ومدح الشخص لرفده ، فيظن لذلك بي الظنون ، غافلاً عن قوله تعالى: { وأنهم يقولون ما لا يفعلون }" " وإني إنما قلت ذلك على وجه

امتحان القريحة، ومحبة في المعاني المبتكرة واللمع المليحة التي لم يصبر عنها إلا من نرى طبعه ، ولم يستهونها إلا من أظلم ونبا عن الحكمة سمعه، وما كل من قال فعل، ولا كل من مدح سأل، على أنه من نشأ بحمد الله في حجر العلم صانه عن الرذائل".
وأشعاره الغزلية ليست تعبيرا عن تجربة شعورية حقيقية، وإنما هي نوع من أنواع امتحان القريحة ،ومحبة في المعاني المبتكرة، ومن هنا فإننا نجد لديه كثيراً من القصائد الغزلية التي لا يهدف من ورائها إلى أكثر من تبيان فحولته وإثبات ألمعيته في مجال إيراد النكتة الجديدة والصنعة التي أصبحت اللباس العصري للشعر في تلك الفترة.

2-- شعر الحشيشة:

ولأول مرة في تاريخ الشعر العربي تظهر مادة الحشيشة المُخَدِّرة، وأصبحت هذه المادة فنًّا من فنون الشعر، ومَوْضعًا من موضوعاته، فكما كانت الخمر منذ العصر الجاهلي غرضًا من أغراض الشعر، أصبحت الحشيشة منذ العصر الأيوبي غرضًا كذلك من أغراض الشعر، وكان السبب في دخول هذه المادة إلى مصر وبلاد الشام هم رجال الصوفية؛ ولذلك سُمِّيَت حشيشةَ الفقراء؛ لأن الصوفية كانوا يُسَمُّون أنفسهم بالفقراء .

ويقول ابن تيمية: إن هذه المادة ظَهَرَتْ في أواخر المائة السادسة وأوائل المائة السابعة حين ظهرت دولة التتار، ومنها انتقلت إلى بغداد. وهناك رواية أخرى، وهي أن هذه المادة إنما عُرِفت - أَوَّلَ ما عُرِفت - بالهند، ثم شاع أَمْرها في بلاد الهند ومنها انْتَقَلَتْ إلى اليمن، ثم فشا أَمْرُها إلى أهل فارس ومنها إلى العراق ومصر سنة 628هـ.

ولعل الصوفية الذين كَثُرَ قدومُهم إلى مصر في عهد صلاح الدين، والذين هَيَّأَت لهم الدولة سُبُلَ الحياة اللينة، وسُبُلَ العيش الرغد في كنفها هم الذين أَدخَلوا هذه المادة إلى مصر. وقد اشتهر بستان الكافوري بزراعة هذه المادة حتى عُرِفَ البستان بحشيشة الفقراء، وعُرِفت الحشيشة بالكافورية نسبةً إلى هذا البستان، وفي ذلك يقول الشاعر زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحنفي:

وخضراء كافورية بات فِعْلُها بألبابنا فِعْلَ الرحيق المعتـــــــقِ

إذا نَفَحَتْنَا من شذاها بنفحةٍ تدب لنا في كل عضو ومنطِـــقِ

غنيت بها عن شرب خَمْر معتَّقٍ وبالدلق عن لبس الجديد المزوَّقِ

أصبحت مادة الحشيشة من موضوعات الشعر، وأخذ الناس يتحدثون عن مدى تحريم هذه المادة، ووُضِعت بعض الفصول والرسائل في تحريم الحشيشة، كما فَضَّلَ بعضٌ الحشيشة على الخمر، نرى شعراء آخرين يهجون الحشيشة، فمن ذلك قول الشاعر إبراهيم بن سليمان بن حمزة المعروف بجمال الدين بن النجار نقيب أشراف الإسكندرية المتوفى سنة 651 هجرية :

لحا الله الحشيش وآكليها لقد خَبُثَتْ كما طاب السلافُ

كما تسبي كذا تُضْنِي وتُشْقِي كما يشقى وغايتها الخرافُ

وأصغر دائها والداء جم بغاء أو جنون أو نشـــــافُ

فالشاعر هنا يُعدِّد ما يصيب مدمن الحشيشة، فهو إما ينتهي به الأمر إلى البغاء، أو الجنون، أو إلى مرض عقلي هو جفاف يصيب المخ، وكلها أمراض لا شك من الأمراض المستعصية .

أصبحت مادة الحشيشة المخدرة من موضوعات الشعر المصري منذ العصر الأيوبي، وأصبح شأنها في الأدب شأن الخمر التي عُرِفت في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، وكما أن الصوفية جاءوا بآراء جديدة وتعاليم جديدة كانت من مواد الشعر، كذلك جاءوا بالحشيشة وقالوا فيها شعرًا، ولكن الأوصاف التي وُصِفت بها الحشيشة كانت محدودة ضيقة، ولم يستطع الشعراء أن يصفوا مجالس الحشيشة ويطنبوا في وصفها كما فعلوا مع مجالس الخمر، بل أخذ شعراء الحشيشة مجالس الخمر وأطْلَقوها على مجالس الحشيشة، بحيث لا نستطيع أن نفَرِّق بين مجالس الخمر ومجالس الحشيشة في هذه الأشعار التي وصَلَتْنا، ولعل السبب في ذلك أن الموضوع كان جديدًا، وأن المادة نفسها لم تكن منتشرة إلا بين الصوفية أو بين عدد قليل من الناس، لهذا لم يُفْسَح للشعراء المجالُ في أن يتحدثوا عنها كما تحدث الشعراء عن الخمر. ومهما يكن من شيء، فإن هذا العصر الأيوبي جاء بفن جديد من فنون الشعر وهو «فن الحشيشيات».

المحاضرة الرابعة: الشعر الديني أو الموضوعات المستحدثة في عصر الضعف

إلى جانب الموضوعات التقليدية ظهرت موضوعات أخرى تتّصل بسبب أو بآخر بما سبق من موضوعات وتتخذ لنفسها، في الوقت ذاته، مساراً مختلفاً له حدوده وقيوده، مما جعل المتأمّل فيها يصفها بالجديدة والمستحدثة، من هذه الموضوعات ما يلي:

1- **شعر المدائح النبوية:** جاء الغزاة الأوربيون إلى الشرق محتلين باسم الصليب، وجاء المغول ودمروا معظم معالم الحضارة العربية والإسلامية، وعمت الأوبئة والأمراض مصر والشام مراراً، وعم خلاف سلاطين بني أيوب والمماليك بعضهم مع بعض، وكان استبداد الحاكمين في رقاب الناس بالغاً، والحياة الاقتصادية في انهيار واضطراب. كل ذلك شجع على انطواء كثير من الناس على أنفسهم، وانعزالهم عن مجتمعاتهم، ولجوئهم إلى الله داعين مستغفرين، ومتقربين إليه بمديح الرسول وآله وصحبه. وانتشرت القصائد الكثيرة في مدح الرسول والتشفع به، وكذلك القصائد الطوال في الابتهال والاستغفار، ومن قصائد مدح الرسول ما سمي بالبديعيات، ويعد صفي الدين الحلي (ت750هـ) أول من نظمها وأول من أضاف إلى كل بيت لوناً من ألوان البديع وذلك في بديعيته التي استوحاها من قصيدة البوصيري (ت696هـ) المشهورة بالبردة ومطلعها:

أمـن تذكـر جيران بـــذي ســـلم مزجت دمعاً جــرى مـن مقلة بـدم

فاستهل الحلي قصيدته بقوله:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عزب بذي سلم

ولما كانت قصيدة البوصيري «البردة» قد اقترنت برؤيا الرسول الكريم(ص) في المنام، وبأنه ألقى عليه بردته ونهض الشاعر بعدها معافى من فالج ألم به، استدل الناس والشعراء على رضا الرسول(ص) عن القصيدة. ومن هذا الباب راح الشعراء ينظمون القصائد على منوال «البردة» تقرباً من الرسول

وطمعاً في شفاعته وتدفق السيل، فإذا مئات القصائد على توالي العصور تظهر متقيدة بمعاني بردة البوصيري وبحرها العروضي وميم رويها المكسورة. حتى إن كثيراً من المسلمين كانوا يوصون أن تكتب بعض أبيات البردة أو إحدى البديعيات على شواهد قبورهم تقرباً إلى الله وزلفى. ولم يكن مدح الرسول بدعاً في الشعر في هذا العصر ولا مستحدثاً، ولكن الجديد في الأمر هو الإفراط، فقد فاق ما قيل في هذا الموضوع جميع ما قيل في الموضوعات الأخرى في العصر كله.

ولقد اعتاد المدّاحون أن يستهلوا قصائدهم بالغزل وما يتصل بالشكوى من الفراق والهجر ونحو ذلك. أما في هذه المدائح فلهم استهلال آخر أوضحه ابن حجة في الخزانة فقال: "يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويطرح ذكر المحاسن والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذارى وما أشبه"

هذا اللون من الشعر أكثر عافية، وأقوم أسلوباً، وأكثر صدقاً، وأجزل لغة من شعر العصر في الأغراض الأخرى .وكان من أعلام هذا الفن البوصيري وابن معتوق (ت707هـ) والشهاب محمود الحلبي (ت725هـ) وابن الوردي (ت749هـ) ...

2-- **الشعر الصوفي:** هو ضرب من الشعر الديني، بينه وبين المديح النبوي والبديعيات وشائج وصلات، لكنه يتخذ مساراً يختلف عن مساريهما معنى ومبنى، أما المعنى فيقوم على الحب الإلهي، وهذا الحب عماده وجوهره وغايته وثمرته. والحب، في عرف أصحابه، حالة ذوقية تفيض على قلوب المحبين، مالها سوى الذوق إفشاء، ولا يمكن أن يعبر عنها إلا من ذاقها، ومن ذاقها ذاهل عن كنهها، كمثل من هو طافح سكراً، إذا سئل عن حقيقة السكر الذي هو فيه لا يمكنه التعبير لأنه سكران. والفرق بين سكر المحبة وسكر الخمرة أن سكر الخمرة يمكن زواله، ويعبر عنه في حين الصحو، وسكر المحبة ذاتي لازم، لا يمكن لصاحبه أن يصحو منه حتى يخبر فيه عن حقيقته.

يقوم الشعر الصوفي على ثلاث دعائم، هي الغزل العذري والخمريات والرمز وقد عرفت هذه العصور شعراء كباراً متصوفين، منهم السهروردي (ت587هـ) وابن الفارض (ت632هـ) وابن عربي (ت638هـ) وأبو العباس المرسي (ت686هـ) والعفيف التلمساني (ت690هـ) وابن عطاء الله السكندري (ت709هـ) وعائشة الباعونية (ت922هـ) وغيرهم.

المحاضرة الخامسة: النثر في عصر الضعف

كان الشعر في العصر العباسي في أزهى أيامه. ثم راح ينحدر قليلاً في العصور التالية، وقد بدأ في الانحدار حتى وصل أدنى المراتب في العهد العثماني، أما **النّثر الفني**، والكتابة الأدبية فقد بدأ انحدارهما منذ أيام العميد (ت360هـ) والصاحب بن عباد (ت385هـ) الذي كان يتساهل بضياع دولة ولا يتساهل بهروب سجعة من أسلوبه، والحريري (516هـ) الذي أشاع في مقاماته حب مطاردة السجع والجناس والزخارف في شتى صورها ليوقعها في شباك كتابته، ويقتفي الخطيب الحصكفي (ت551هـ) خُطا أرباب التعقيد والتصنع واصطياد المحسنات اللفظية أو المعنوية من الذين سبقوه زماناً، فإذا هو يخرج إلى الناس برسائل وخطب ليس فيها من الابتكار شيئا.

1-فنون النثر: مجالات النثر كثيرة، ولعلها أرحب مما هي في الشعر وأوسع دائرة وأكثر حرية، فبالنثر يستطيع الإنسان التعبير عما يريد بيسر وسهولة أكثر من الشعر المنظوم الموزون. وحصراً لمجالات النثر يمكن القول: إنها تدور في: رسائل وكتابات ديوانية رسمية، ورسائل ومكاتبات إخوانية، ومقامات أدبية، وخطب منبرية، ومؤلفات علمية. ويمكن القول كذلك: إن معظم الكتابات الديوانية، والرسائل الإخوانية، والمقامات الأدبية، والخطب المنبرية، طبعت بطابع العصر الذي كتبت فيه، وحملت سماته وصفاته، من

كلفة وتصنع مقبول، إلى كلفة وتصنع ومبالغة في اصطياد المحسنات البديعية على حساب المعنى، سواء أكتبت تلك الآثار في العصر الأيوبي أم المملوكي أم العثماني.

2-خصائص النثر وأعلامه: كان من أشهر العلماء والكتاب الذين عاشوا في العصر الأيوبي والمملوكي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت596هـ) والعماد الأصبهاني (ت597هـ) وكلاهما كتب للأيوبيين، وإن كان القاضي الفاضل قبل ذلك قد كتب للفاطميين بمصر في ديوان الإنشاء. وقد تآلف هذان الرجلان في حياتهما وعقدت الصداقة بينهما أواصر المحبة، وقد تآلفا كذلك في أسلوبهما الأدبي، حتى لكأن هذا ذاك، وكتابة ذاك هي كتابة هذا. وربما جاز القول: إن القاضي والعماد طبعا العصر الأيوبي والمملوكي بطابعيهما، وكانا المثل الأعلى لكل كتّاب العصر الذي تلا. لقد ورثا من العصور السابقة، ولاسيما العصر العباسي، ما تواضع عليه أكابر الكتّاب كابن العميد والصاحب والحريري والمعري (ت449هـ) والتبريزي (ت502هـ) والحصكفي من تكلف وتصنع وتعقيد واصطياد للسجع أو الجناس أو غير ذلك من هذه الألوان البديعية، ثم زادا على ما ورثا ما أبدعته قريحة كل منهما: فبلغ الجناس المعكوس،على أيديهما، ذروته، ومالا يستحيل بالانعكاس يكثر ويتعاظم، والتلاعب اللفظي يعم ويطغى. إلى جانب ذلك كله كانت ترى بعض التعابير الرشيقة، والصور اللطيفة، وبعض الكتابات الخفيفة الظل، مما يشهد لهما بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارئ. وظلت مدرسة الرجلين في الأسلوب قائمة في عصر المماليك، وكان ديوان الإنشاء أكبر حافز للجاه والرزق والشهرة والوزارة والقرب من السلطان، وكان القلقشندي المعين الأكبر لهؤلاء الطلبة على معرفة ما يوجبه الانتساب إلى ديوان الإنشاء من علوم ومعارف وأساليب. وكان كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» خير دليل على هذه المواصفات.
وقد برز في هذا العصر صوت شاذ يحارب طريقة القاضي الفاضل والعماد الكاتب وينعى على المتكلفين طريقتهم، ويقف في وجه هذه الأساليب، ذلك هو صوت ضياء الدين بن الأثير الجزري (ت637هـ) ولاسيما في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، وقد امتازت كتابته هو ممن ذكروا بالتجديد، وكانت أفكاره في كتابه المذكور ثورة في الإنشاء الأدبي في عصره، إذ خالف الأساليب المتبعة وحمل على أصحابها، ولدى التدقيق في أسلوب ابن الأثير يتضح اعتماده في شتى كتاباته العامة والخاصة والإخوانية والديوانية الرسمية أو التأليفية على أسلوبين اثنين: أسلوب مسجع، وأسلوب مطلق. أما السجع فغلب على نثره الديواني، وهو كتاب في الديوان، وعلى نثره الإخواني. وأما المطلق فقد استخدمه في تصانيفه، ولاسيما في "المثل السائر"، وفيه ابتعد عن السجع واللعب بالعبارات والإكثار من المحسنات اللفظية. لقد وظّف ابن الأثير الألفاظ في خدمة المعاني، وأتى بآراء جديدة، تكاد تكون اليوم معتمدة وأساسية لدى معظم النقاد المعاصرين، منها: أن السجع يكون مقبولاً إذا كان طبيعياً ومعتدلاً، وأن يكون فيه اللفظ تابعاً للمعنى، وأن غرائب الألفاظ تشين الكتابة الأدبية وينبغي تحاشيها، وأن الكلفة والتصنع في تأليف العبارة يوديان بقيمتها وأثرها. وفي الحق، إن ابن الأثير حاول أن يعدل بتلك الأساليب المنتشرة في ذلك العصر نحو الاتجاه السليم، لكن طغيان التقليد والتصنع جعل محاولته لا تلقى القبول.

أما **في العصر العثماني،** فقد سبق القول إن اللغة العربية انزوت في كتاتيب ومدارس صغيرة، وغدت اللغة الثالثة بعد التركية والفارسية، إضافة إلى إلغاء ديوان الإنشاء أصلاً، وإحلال اللغة التركية محل العربية، وعدم تشجيع السلاطين على العلم والأدب. وعم الفقر والجهل مختلف الربوع، مما أدى إلى تدهور الكتابة، بل تدهور العلم في شتى ألوانه وضروبه، اللهم إلا بعض قبسات مضيئة في هذا العصر

3- **البناء الفني للرسالة :** تتكوّن الرسالة من مجموعة من الخصائص البنائية نلخصها فيما يلي:

- **الافتتاح** : كانت الرسائل النثرية غالباً ما تفتتح بالبسملة والتحميد والصلاة على رسول الله، أو مبتدئة بالدعاء للمرسل إليه ، وذكر اسمه وتعداد مناقبه بما يتناسب ومن يكتب إليه ، أميراً أو وزيراً أو

صديقاً ، ومن الأمثلة التي تبدأ بالدعاء للمرسل إليه ، قولك : أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، سماحة الشيخ الجليل حفظه الله ورعاه، إلخ.

- **المقدمة** : وفيها تعبر عن عاطفتك نحو المرسل إليه ، إما بالدعاء له ، أو بإقرائه السلام ، أو غير ذلك مما يلائم الموضوع والشخص المكتوب إليه .
- **المقصد والغاية (الغرض)** : وهو جوهر الرسالة ، ويتناول ذكر الغرض الرئيس الذي من أجله وضعت الرسالة ، وينبغي هنا عدم الإسهاب ، والاقتصار على تفصيل هذا الغرض بالذات .
- **الخاتمة** : وبها يختم الكاتب رسالته بطريقة مماثلة لمقدمة الرسالة ، أي بعبارات تؤكد العواطف والأفكار التي جاءت في صلب الرسالة . ومن صور الختام : " السلام عليكم ورحمة الله وبركاته " ، " والله تعالى يجعلنا وإياكم ممن شكر النعمة وآثر العمل الصالح ، وقدمه بمنه " ، و " والله ولي الصابرين " ، إلى غير ذلك مما يناسب موضوع الرسالة ، والشخص المرسل إليه . ومن آداب الرسالة أن تذيل بإمضاء المرسل ، وأن يعين فيها تاريخ كتابة الرسالة ، وأن يذكر عنوان المرسل بوضوح .

4-خصائص الرسالة : لا شك في أن السجع من العلامات البارزة في الأجناس النثرية القديمة كما تشهد على ذلك المقامات والخطب والرسائل. غير أن شيوعه في النثر، وخاصة في الرسائل، جعل من السجع ظاهرة أقرب إلى التقليد الأدبي منه إلى الخاصية الفنية التي تسهم في التمييز بين الأجناس النثرية بأنواعها المختلفة. أما قيمته الفنية، فلا تبرز إلا إذا كان الكاتب ملما بالسجع وأنواعه، وواعيا بحدوده، ومصيبا في توظيفه إذ هناك أنواع من السجع.